الباب الثاني

العصر الإسلامي

الفصل الأول

١ ـ علاقة مصر بالعرب قبل الإسلام[١]

العلاقة بين مصر والعرب علاقة قديمة جداً تعود لعصر ما قبل الأسرات حيث شهدت مصر قدوم هجرات سامية كثيرة إلى أراضيها ، وهى هجرات مستمرة دون انقطاع ، اندمجت مع المصريين ، وسنحاول تتبع هذه الهجرات.

بعد اتحاد مصر عام ٣٢٠٠ق.م أصبحت مصر دولة قوية استطاعت توجيه ضربات لهؤلاء البدو ، الذين كانوا يعيشون فى شبه جزيرة سيناء ، وكان المصريون يسمونهم (عمو) ومعناها البدو.

وفى عهد الدولة القديمة ، وهو ما يُعرف باسم عصر الأسرات أو بناة الأهرام ، نظمت مصرُ حملات منظمة لتأديب البدو ، والذين كانوا يهددون طرق التجارة ، وقد أقامت مصر فى هذه الفترة علاقات مع جنوب شبه الجزيرة العربية.

وقد كان البدو يستغلون فترة الاضطرابات السياسية فى مصر ويحاولون الإغارة عليها ، مثلما حدث فى عام ٢٣٠٠ق.م فى العصر المتوسط الأول ، حينما أغار هؤلاء البدو على الدلتا ، وتمكّن أمراء أهناسيا من طردهم.

وقد برز الوجود العربى أكثر فى عهد الهكسوس ، والذين تعود أصولهم إلى قبائل عربية اختلطت بسكان الشام ، واستطاعوا احتلال مصر ، وتأسيس عاصمة لهم فى أواريس ، وقد تأثرت الحضارة المصرية بهؤلاء الهكسوس ، حيث أدخلوا سلاح العجلات الحربية ، وبعض الصناعات إلى مصر.

---

(١) عن علاقة العرب قبل الإسلام بمصر انظر عبد الله خورشيد: القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة . وعبد النعيم ضيفى عثمان مقدمة البيان والإعراب عما حل بمصر من الأعراب، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة . وانظر : فيليب حتى : تاريخ العرب قبل الإسلام .

أما فى عهد الدولة الحديثة، فقد زادت العلاقات بين مصر وشبه الجزيرة العربية، وقد ساعد على نمو هذه العلاقات اتساع مساحة الامبراطورية المصرية ، والتى وصلتْ فى حدودها إلى بلاد العراق ، وكان من مظاهر التعاون اتساع التجارة المصرية ، كما عمل البدو أحياناً كثيرة كجنود مرتزقة فى الجيش المصرى ، كما قدمت قبائل عربية استوطنتْ فى وادى المطميلات.

وفى العصر المتأخر ، تعرضتْ مصر لاضطرابات كثيرة ، كان من أبرزها قيام مصر بتحريض القبائل البدوية ضد دولة آشور فى العراق مما جعل الآشوريين يقومون بغزو مصر.

وقد كان العرب قبل الإسلام يقدمون العون لكل مَنْ أراد غزو البلاد ، فقد ساعدوا حملة قمبيز الفارسية فى غزوها لمصر ، وكانوا يمدون الجيش الفارسى بالجمال والقِرَب الممتلئة بالمياه . ولم يكتفِ العربُ بذلك ، بل كوَّنوا فرقة للقتال بجانب الجيش الفارسى . وقد عاونوا أيضاً الرومان عندما فتحوا الإسكندرية ، عن طريق تشكيل فرقة من الفرسان العرب ، حاربت بجوار الرومان.

وقد كان العرب يعيشون فى الصحراء الشرقية ، ومدينة الإسكندرية ، حيث كان يعيش العرب بجوار اليهود ، والقبط ، والسوريين ، والإغريق ، كما أن بلاد الحجاز شهدت إقامة الكثير من المصريين ، الذين أسهموا فى إعادة بناء الكعبة ، بعد تصدُّع جدرانها نتيجة سيل ، وكان المصرى (باخوم) من الذين شاركوا فى البناء.

وكانت هناك وسائل عديدة ، ساعدت على تقوية العلاقات بين مصر والعرب منها : قرب موقع مصر الجغرافى من شبه الجزيرة العربية ، ووجود شبه جزيرة سيناء ، التى كانت حلقة الوصل بين القبائل العربية ومصر. فعبر سيناء قدمت القبائل ، واختارتها مكاناً للعيش ، وقد تركز وجودهم أكثر بعد الفتح الإسلامى لمصر ، والذى سنعرض له ، فى الصفحات القادمة.

٢ ـ الفتح العربى لمصر وعصر الولاة [١]

لم يكُنْ فتح مصر من ضمن أهداف الفتوح الإسلامية ، والتى حدثت فى عهد عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، والسبب وجود حاجز مائى بينها وبين شبه الجزيرة العربية ، وهو البحر الأحمر ، وبسبب حرص أمير المؤمنين على أرواح المسلمين ، لوجود حامية رومانية كبيرة فيها.

ولكن عمرو بن العاص (رضى الله عنه) رغَّب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) بسهولة فتح مصر ، وذكر له غناها فى الموارد ، وأنها سوف تكون عوناً للمسلمين فى فتوحاتهم ، ولكن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) تردد . وكان عمرو بن العاص (رضى الله عنه) قد أتى بتجارته مرات عديدة لمصر ، ويعرف أهلها معرفة جيدة .

ولم ييأس عمرو بن العاص فكرر الإلحاح على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) حتى وافق بعد إلحاح . وأذن لعمرو بفتح مصر ، وأمدَّه بثلاثة آلاف جندى للقيام بفتح مصر تحقيقاً لعدة أهداف ، وهى تأمين ظهر الفتوحات الإسلامية فى بلاد الشام ، بالقضاء على الروم فى مصر ، ونشر الإسلام بين جموع المصريين ، تحقيقاً لرسالة الإسلام ، وعالميته.

وقد سار عمرو بن العاص (رضى الله عنه) بجيشه الذى لا يزيد عن الثلاثة آلاف جندى ، فأرسل له الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) رسالة يطلب منه الرجوع عن الغزو ، إنْ لم يكن قد دخل مصر ، فأمسك عمرو بن العاص بالرسالة ، ولم يفتحها حتى وصل للفرما وهى بأرض مصر ، فلما قرأها على الجنود ، لم يكُنْ لهم من اختيار سوى مواصلة الفتح . فوصل الجيش الإسلامى إلى بلبيس وواجه جيوش الروم وانتصر عليهم ، ثم توجَّه إلى قرية أم دنين ، وانتصر على الروم أيضاً ، حتى وصل إلى حصن بابليون . وهو حصن رومانى يقع على النيل.

---

(١) عن الفتح الإسلامى لمصر انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها . وانظر : بتلر : فتح العرب لمصر . والكندى : ولاة مصر ، تحقيق حسين نصار . والسيوطى : حُسْن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة.

وكان قائده يسمى الأعيرج . فضرب عمرو بن العاص الحصار على الحصن ، وطلب المدد من الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، فأمده بثنتا عشر ألف جندى بقيادة الزبير بن العوام (رضى الله عنه) ، واستمر حصار الحصن لمدة سبعة شهور ، حتى استسلمت حامية الحصن.

وبعد فتح حصن بابليون سار الجيش الإسلامى إلى مدينة الإسكندرية وقاتلوا الروم ، وانتصروا عليهم سنة ٢١هـ. ثم واصل عمرو بن العاص فتوحاته فى شمال إفريقية ففتح برقة سنة ٢١هـ . وطرابلس سنة ٢٢هـ . وبذلك يكون عمرو بن العاص قد أرسى دعائم الحكم الإسلامى فى مصر ، وقد تمَّ تعيينه والياً على مصر عدا الصعيد فقد ولى عليه عبد الله بن سعد بن أبى سرح.

وبعد وفاة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) حاول عمرو بن العاص أن تكون له ولاية مصر كلها بما فيها الصعيد ، ولكن الخليفة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) عزل عمرو بن العاص من ولاية مصر.

ولاية عبد الله بن سعد بن أبى سرح :

تولى بعد عزل عمرو بن العاص ، وفى عهده هاجم الرومُ مدينة الإسكندرية ، فطلب الناس من عمرو بن العاص أن يقود الجيش لمحاربة الروم ، واستطاع الانتصار عليهم فى عام ٢٥هـ . ومن أهم أعمال عبد الله بن سعد . فَتْح إفريقية وهى تونس الحالية فى عام ٢٧هـ . وقتل جرجيروس حاكم إفريقية.

وفى عهده قامت ثورة قادها محمد بن أبى حذيفة الذى ثار على عقبة بن عامر ، خليفة عبد الله بن سعد ، وأخرجه من مدينة الفسطاط.

ولاية قيس بن سعد:

هو قيس بن سعد بن عبادة ، تولَّى حكم مصر من قِبَل الإمام على بن أبى طالب (رضى الله عنه) ، وجمع له أمر الخراج ، والصلاة . وقد استطاع القضاء على ثورة قام بها العرب فى خربتا.

وقد ولى على مصر عدد كبير من الولاة ، يزيد عن مائة وَالٍ وأكثر ، ولذلك حتى لا يطول موضوع الكتاب ، سنقتصر فى الحديث على أهمهم .

٣ ـ الولاة فى عصر الأمويين

ولاية عمرو بن العاص الثانية :

تولَّى عمرو بن العاص للمرة الثانية ، من قِبَل معاوية بن أبى سفيان فى عام ٣٨هـ . وجمع له فيها الصلاة والخراج . وفى عهد ولايته الثانية تعرض لمحاولة اغتيال ولكنه نجا منها ، وكان من أسباب محاولة الاغتيال هذه هو مشاركته فى عملية التحكيم ضد على بن أبى طالب (رضى الله عنه) فحاول الخوارج قتله.

وفى عهد ولايته الثانية حارب قبيلة لواتة البربرية وانتصر عليهم ، ولما حاولوا الثورة مرة ثانية أمر عمرو بن العاص ، عقبة بن نافع بغزو قبائل لواتة ، ونجح عقبة ابن نافع فى هزيمة هذه القبائل ، كما غزا عقبة بن نافع قبائل هوارة.

وقد توفى عمرو بن العاص (رضى الله عنه) فى صباح عيد الفطر عام ٤٣هـ ، واستخلف ابنه عبد الله على الصلاة ، ومن أقواله (رضى الله عنه) : «اللهم أمرتنا فتركنا ، ونهيتنا فركبنا ، ولا يسعنا إلا مغفرتك».

ولاية عقبة بن عامر :

تولَّى ولاية مصر ، من قِبَل معاوية بن أبى سفيان ، وقد كان عقبة بن نافع فقيهاً ، وقارئاً . وهو من صحابة رسول الله ﷺ ، وقد عُزِل من ولاية مصر عام ٤٧هـ ، وتولى بدلاً منه مسلمة بن مخلد الأنصارى.

ولاية مسلمة بن مخلد الأنصارى :

تولَّى مَسْلَمة ولاية مصر من قِبَل معاوية بن أبى سفيان ، وأُعطيَتْ له ولاية المغرب أيضاً ، وأهم الأحداث التى حدثت فى عهده نزول الروم البرلس سنة ٥٣هـ

فحاربهم مسلمة بن مخلد . واستشهد فى هذه المعركة وردان مولى عمرو بن العاص ، وعائذ بن ثعلبة البلوى ، وأبو رقية عمرو بن قيس اللخمى ، كما استشهد أيضاً جمع كثير من الناس.

ومن أعماله العمرانية قيامه بتوسعات فى جامع عمرو بن العاص ، كما يُنسب له أنه أول من أمر ببناء المآذن ، وأمر المؤذنين أن يكون أذانهم فى الليل فى وقت واحد ، فكان مُؤذِّنو المسجد الجامع يُؤذنون للفجر ، فإذا فرغوا من أذانهم أذَّن كل مؤذن فى الفسطاط فى وقت واحد .

وبعد وفاة معاوية بن أبى سفيان ، واختيار يزيد بن معاوية ، أقر مسلمة بن مخلد على مصر ، وقد قام مسلمة بأخذ البيعة ليزيد بن معاوية ، وقد توفى مسلمة بن مخلد فى عام ٦٢هـ . واستمرت ولايته على مصر خمسة عشرة سنة ، وأربعة أشهر . وقد اشتهر مسلمة بن مخلد بإطالته فى الصلاة ، فقد كان يقرأ سورة البقرة فى صلاة الظهر ، ففى رواية الحارث بن يزيد (كان مسلمة بن مخلد يصلى بنا ، فيقوم فى الظهر ، فربما قرأ الرجل سورة البقرة) .

ولاية عبد الرحمن بن عتبة :

ولى على مصر من قِبَل عبد الله بن الزبير فى عام ٦٤هـ . وفى عهده عُيِّن مروان ابن الحكم خليفة على الدولة الأموية فى نفس العام ، فحدث فى مصر صراع بين أنصار عبد الله بن الزبير وأنصار الأمويين ، فأرسل مروان جيشًا لمحاربة عبد الرحمن ابن عتبة . أما عبد الرحمن بن عتبة . فجهز جيشاً زوَّده بمراكب بحرية وجيشاً برياً ، ليمنع عبد العزيز بن مروان من الدخول إلى مصر ، كما حفر خندقاً حول مدينة الفسطاط ، كما أرسل جيشاً بقيادة زهير بن قيس البلوى إلى أيلة .

وبدأت المعركة بين جيش عبد الرحمن بن عتبة والأمويين ، واستطاع الأمويون هزيمة جيش زهير بن قيس البلوى ، أما الجيش الآخر وكان بقيادة السائب بن هشام ابن كنانة فانسحب من المعركة . وبالنسبة للأسطول البحرى فقد فاجأته عاصفة

فأغرقته ، ولم يتبق أمام عبد الرحمن بن عتبة إلا أنْ يتولى المقاومة بنفسه ، فتحصَّن فى خندق الفسطاط ، والذى كان قد أمر بحفره حول المدينة لحمايتها.

أما عبد العزيز بن مروان فقد سار بجيشه ، حتى وصل إلى مدينة عين شمس فخرج ابن جحدم لمقاتلته ، ولكنه لم ينجح فى وقف زحفه تجاه الفسطاط ، واستمر حصار الأمويين للفسطاط ، حتى لجأ ابن مروان لاستمالة مجموعة من القبائل النازلة فى مصر. وكان قد تواطأ من قبل مع ابن جحدم، ودخل مروان الفسطاط عام ٦٥هـ. وحاول استمالة المعافرى إليه ، ولكنهم أبوا أن يبايعوه ، فقتل حوالى ثمانين رجلاً منهم.

ولاية عبد العزيز بن مروان :

تولَّى مصر بعد دخوله إليها ، وهزيمته لجيش عبد الرحمن بن عتبة ، وعَيَّن على الشرطة رجلاً يسمى عابس بن سعيد المرادى ، وبعد وفاة مروان بن الحكم . وتعيين عبد الملك بن مروان خليفة للدولة الأموية ، أقر عبد العزيز بن مروان بولايته على مصر.

وقد كان لعبد العزيز بن مروان إنجازات كبيرة فى مصر ، مثل إنشاء الدار المذهبة ٦٧هـ ، وهى التى تسمى المدينة بسوق الحمام غرب المسجد الجامع ، كما بنى مدينة حلوان ، وغرس فيها النخيل ، وأنشأ فيها بساتين ، كما أمر بالزيادة فى جامع عمرو بن العاص ، فهدمه وزاد فيه من جوانبه.

وقد حدثت أحداث هامة فى عهد عبد العزيز بن مروان منها : حدوث وباء الطاعون فى مصر على عهده ، وقد بدأ الطاعون ينتشر فى كافة أرجاء مصر ، فخاف عبد العزيز على نفسه ، وحاول السفر للشرقية ، ولكنه نزل حلوان فأعجب بهوائها ، فقرر الإقامة فيها.

وقد مرض عبد العزيز بن مروان وتوفى فى عام ٨٦هـ . فحُمل من حلوان إلى الفسطاط ، ودُفن فيها ، وقد استمرت فترة ولايته على مصر عشرين سنة ، وعشرة

أشهر ، وتعتبر أطول فترة قضاها والٍ فى مصر ، وعلى الرغم من ثرائه ، نتيجة لتخصيص خراج مصر له ، إلا أنه مات فقيراً لا يمتلك سوى سبعة آلاف دينار.

ولاية عبد الله بن عبد الملك :

عُيِّن والياً على مصر من قِبَل أبيه فى عام ٨٦هـ ، وكان عمره حينما تولى على مصر حوالى سبعة وعشرين عاماً ، وفى عهده تم تعريب الدواوين فى مصر ، وأصبحت تُكتب باللغة العربية بدلاً من القبطية ، كما أبعد أثيناس من الديوان ، وعين بدلاً منه يربوع الفزارى ، كما منع الناس من ارتداء البرانس ، وبنى الجامع المعروف بجامع عبد الله.

وفى عهده زادت الأسعار فى مصر ، فتشاءم منه المصريون ، واتهموه بأخذ الرشوة ، وسموه مكسيًا ، وكانت هذه الأزمة أول أزمة يراها المصريون ، وقد سخر الشعراء منه نتيجة هذه الأزمة ، فقال زرعة بن سعد الله :

إذا سار عبد الله من مصر خارجاً ... فلا رجعت تلك البغال الخوارج

أتى مصر والمكيال وَافٍ مُغربل ... فما سار حتى سار والمدّ فالج

ولاية قرة بن شريك :

تولَّى حكم مصر عام ٩٠هـ ، وقد قام بعدة إصلاحات إدارية ، فعين عبد الأعلى ابن خالد قائداً للشرطة ، ثم عزله وعيَّن عبد الملك بن رفاعة ، أما فى الإسكندرية فعيَّن عبد الرحمن بن معاوية على الشرطة سنة ٩١هـ .

وقد حدثت ثورة قام بها الخوارج الشراة ، ضد قرة بن شريك فى الإسكندرية ، وكان زعيم هذه الثورة المهاجر بن أبى المثنى ، وابن أبى أرطأن ، وكان عدد الثوار حوالى مائة ، ولكن أحد الوشاة أبلغ قرة بمؤامرة الخوارج الشراة ، فألقى القبض عليهم عند مغارة الإسكندرية ، وحبسهم فيها ، كما قتل زعماء الثورة.

ومن أعمال قرة بن شريك العمرانية قيامه بالزيادة فى المسجد الجامع (جامع عمرو بن العاص) وعمل منبراً جديداً له ، كما أقر الدواوين ، وبنى له اصطبلاً لخيوله، أخذه من أرض الموات ، وغرسه قصبًا ، وكان يُعرف باسم إسطبل قرة ..

وقيل عن قرة بن شريك : إنه كان يعتقر الخمر ، وذكر الرواة أنه كان بعد أن يفرغ العمال من العمل يدخل المسجد ، ويشرب الخمر ، ويستمع للطبل والمزمار . ويقول : لنا الليل ، ولهم النهار . وقد تُوفِّى قرة بن شريك فى عام ٩٦هـ ، ودُفِن فى مصر ، واستمرت ولايته على مصر ست سنوات .

ولاية عبد الملك بن مروان :

تولَّى الحكم من قِبَل مروان ، وأعطيت له الصلاة والخراج ، وكان والياً على خراجها من قبل . وقد عَيَّن أخاه معاوية على الشرطة سنة ١٣٢هـ ، ثم عزله وعيَّن بدلاً منه عكرمة بن عبد الله ، وفى عهده أمر بإقامة المنابر فى الكور (المحافظات) حيث لم تكُنْ بها منابر.

وقد حدثتْ فى عهده ثورة القبط ، قادها رجل يسمى (يُحنَّس) فى سمنود ، فبعث عبد الملك بن مروان بجيش بقيادة عبد الرحمن بن عتبة المعافرى ، فقضى على الثورة ، وقُتل (يحنس) وكثير من أصحابه ، كما قام بتأديب قبائل قيس . فسيَّر إليهم جيشاً بقيادة موسى بن المهند والى بلبيس ، ودعاهم للصلح ، فانصرفوا .

قدوم مروان بن محمد لمصر :

قدم مروان بن محمد لمصر فراراً من الهجوم العباسى على الدولة الأُموية ، فدخل مصر فى عام ١٣٢هـ ، وقام بعدة أعمال وهى حرق الدار المذهبة التى بناها عبد العزيز ابن مروان ، كما خرق الجسرين على النيل فى الجيزة ، ويبدو أنه قام بذلك حتى لا يعطى العباسيين فرصة لمطاردته .

ولكن جيوش العباسيين طاردته ، ودخلتْ فى معركة معه فى بوصير ، وقُتِل مروان بن عبد الحكم فى المعركة ١٣٢هـ ، وبذلك انتهى عصر ولاة بنى أمية فى مصر، ودخلت مصر فى عصر جديد وهو ولاة الدولة العباسية .

٤ ـ الولاة فى عهد العباسيين

ولاية صالح بن على :

هو صالح بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، تولَّى فى عام ١٣٣ هـ . من قِبَل أبى العباس عبد الله بن محمد أول الخلفاء العباسيين ، وقد تولى صالح بن على ولاية مصر مرتين ، والمرة الثانية كانت فى عام ١٣٦ هـ .

وفى عهده تمتْ البيعة للدولة العباسية من المصريين ، كما تم أَسْر عبد الملك بن مروان ، ومعاوية بن مروان من البيت الأموى ، كما قام بالتنكيل بمؤيدى الأمويين فى مصر .

ولاية موسى بن عيسى العباسى :

تولَّى من قِبَل هارون الرشيد ، وعيَّن أخاه إسماعيل على الشرطة ، وفى عهده أذن للمسيحيين ببناء الكنائس التى هدمت فى عهد على بن سليمان ، وبُنيتْ الكنائس بعد مشورة الليث بن سعد ، وعبد الله بن لهيعة ، وقد قالا إنها من عمارة البلاد .

ولاية عيسى بن منصور :

تولَّى عام ٢١٦ هـ وفى عهده قامت ثورة العرب والأقباط احتجاجاً على ظلم الموظفين ، وكان من نتيجة الثورة طرد الموظفين ، وامتنع العرب والأقباط عن دفع الضرائب ، فأحضر عيسى بن منصور ، الأفشين من برقة للقضاء على الثورة ، واستطاع القضاء عليها .

وفى عهد عيسى بن منصور . زار الخليفة المأمون مصر عام ٢١٧ هـ ، وسخط على ما قام به عيسى بن منصور ، وأجرى إصلاحات إدارية فعيَّن أحمد بن بسطام منصب رئيس شرطة الفسطاط . كما أمر بتعمير المقياس . كما أمر بإقامة جسر بدلاً من الجسر المتهدم بالفسطاط ، كما عمل على ضبط الأمن ، وزار الكثير من بلاد مصر فزار سخا ، ثم عاد للفسطاط ، وغادر مصر بعد زيارة استمرت تسعة وأربعين يوماً.

ولاية عنبسة بن إسحاق الضبى :

تولَّى من قِبَل المنتصر على الصلاة ، بينما تولى الخراج أحمد بن خالد ، وقد كان عنبسة يعتنق مذهب الخوارج ، ويقوم إلى الصلاة سائراً على رجليه ، ويتولى النداء على الناس بالسحور فى رمضان .

وقد تعرضتْ دمياط فى عهده لغزو من الروم عام ٢٣٨هـ ، فجهز عنبسة جيشاً لمطاردة الروم الذين فروا إلى تنيس ، فلم يتبعهم عنبسة ، وقام الروم بأعمال إجرامية ضد السكان ، مما حدا بالخليفة المتوكل أن يأمر ببناء حصن دمياط .

وقد عُزل عنبسة بن إسحاق فى عام ٢٤٢هـ ، ويعتبر آخر الولاة العرب الذين تولوا مصر ، لأن الولاة بعد ذلك كانوا من الأتراك ، والذين زاد نفوذهم فى الدولة العباسية، وخصوصاً فى عهد الخليفة المستنصر ، وسنقتصر فى الحديث عن والٍ واحد من الأتراك ، وهو:

ولاية مزاحم بن خاقان :

وُلِّىَ فى عام ٢٥٣هـ من قِبَل المعتز ، وجعل على الشرطة أزجور ، وفى عهد مزاحم قام رئيس الشرطة أزجور بعدة إجراءات كانت جديدة على المصريين، وهى: منْع النساء من الذهاب للحمامات ، والمقابر ، كما منع الناس من الجهر بالبسملة فى الصلوات ، ومنع الناس من استخدام الحصير فى المساجد ، كما أمر أن تكون صلاة التراويح خمس تراويح ، كما منع الناس من التثويب ، وهو تكرار الأذان ، كما أمر بالأذان يوم الجمعة فى مؤخر المسجد .

ويبدو أن أزجور هذا كانت لديه ميول دينية ، وكان يستخدم السلطة فى تنفيذ أفكاره ، فهو لم يكتف بذلك ، بل منع الناس من صلاة الفجر فى الضوء وأمرهم بإقامتها فى التغليس (ظلمة آخر الليل) ، كما أمر الناس بعدم حلق شعورهم ، ومنع النساء والرجال من شَقِّ الثياب على الميت .

الفصل الثاني

١ ـ الدولة الطولونية[١]

مُؤسِّس هذه الدولة هو أحمد بن طولون ، الذى تولى الحكم فى مصر عام ٢٥٤هـ نائبًا عن باكباك التركى ، فقد كانت الدولة العباسية فى أواخر عهدها ضعيفة ، فازداد نفوذ الأتراك ، وكان الولاة حينما يتم تعيينهم على ولاية يرسلون نائبًا عنهم إلى هذه الولاية ، ويظلون قائمين ببغداد ، ومن هؤلاء باكباك الذى أرسل أحمد بن طولون نائبًا عنه إلى مصر .

١ ـ أحمد بن طولون :

وقد بدأ أحمد بن طولون فى بداية ولايته بتعيين بوزان رئيسًا للشرطة ، ثم عزله وولَّى مكانه موسى بن طونيف ، وقد قام ابن طولون بمحاربة الثوار الذين ثاروا عليه فى الصعيد ، وأرسل لهم الجيوش لقتالهم ، فأرسل جيشًا بقيادة ابن أزذاد لمحاربة ابن الصوفى العلوى فى إسنا ، ولكن جيش ابن أزذاد هُزم . فأرسل ابن طولون جيشًا آخر بقيادة بهم بن الحسين . استطاع الانتصار على ابن الصوفى فى الصعيد عند مدينة أخميم، وفَرَّ ابن الصوفى إلى الواحات ، ثم عاد بعد سنتين ، وجدد الثورة ، ولكن ابن طولون استطاع القضاء عليه .

وقد اتسعت الدولة الطولونية فى عهد مؤسسها أحمد بن طولون ، حيث قام الخليفة المعتمد بتعيين أحمد بن طولون على خراج مصر ، وتعيينه واليًا على بلاد الشام، كما استطاع ضمَّ بلاد شمال إفريقيا إلى مصر .

---

(١) انظر : الاسحاق المنوفى: أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ، هيئة قصور الثقافة ، القاهرة ١٩٩٨م.

وفى أثناء دولة أحمد بن طولون ، قام بعدة أعمال عمرانية منها بناء الجامع المعروف باسمه فى جبل يشكر فى عام ٢٦٦هـ ، كما استكثر من الجند السودانيين فى مصر ، وأنشأ مدينة القطائع ، وجعلها عاصمة له .

وقد توفى أحمد بن طولون عام ٢٧٠هـ بعد مرض أصابه جعله يترك بلاد الشام ويتوجه إلى مصر . وتولى من بعده ابنه خمارويه . وقد توفى أحمد بن طولون وله من الأولاد ثلاثة وثلاثون ولدًا ، منهم سبعة ذكور ، أما ثروته التى خلفها فقد كانت عشرة ملايين دينار ، وعشرة آلاف خيل ، ومائة مركب حربى .

٢ ـ خمارويه (٢٧٠ـ٢٨٢هـ / ٨٨٤ـ٨٩٥م) :

تولَّى الحكم عام ٢٧٠هـ / ٨٨٤م . واشتهر بحب الصدقات والخير ، ومن أهم أعماله العمرانية توسعة الميدان الذى أنشأه والده ، كما أنشأ بركة من الزئبق ، ينام فيها على وسائد هوائية ، لأنه كان يشكو من الأرق . كما أنشأ دار السباع – أشبه بحديقة الحيوان- وقد قُتِل خمارويه فى مدينة دمشق عام ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م بعد أن مكث فى الحكم مدة ثنتا عشر سنة ، ولخمارويه ابنة مشهورة هى : قطر الندى ، والتى كان لحفل زفافها على الخليفة العباسى المعتضد شهرة كبيرة .

٣ ـ حكام الدولة الطولونية بعد وفاة خمارويه :

بعد وفاة خمارويه ، تولى ابنه أبو العساكر بن خمارويه عام ٢٨٢هـ / ٨٩٥م ، ولكنه لم يمكث كثيرًا ، حيث قُتِل عام ٢٨٢هـ / ٨٩٥م بعد فترة قضاها فى الحكم لا تزيد عن ثمانية أشهر ، ثم تولى من بعده أخوه أبو موسى بن هارون بن خمارويه ، وحكم لمدة ثمانى سنوات وقُتِل .

وقد انتهت الدولة الطولونية بعد إرسال الدولة العباسية جيشًا بقيادة محمد بن سليمان الكاتب ، الذى دخل مدينة القطائع وأحرقها ، وعادت مصر ولاية عباسية تُحكم مباشرة من قِبَل العباسيين .

٢ ـ الدولة الإخشيدية

(٣٢٣ ـ ٣٥٨هـ / ٩٣٥ ـ ٩٦٩م)

ظهرت هذه الدولة فى مصر بعد انتهاء الدولة الطولونية ، حيث قام الخليفة العباسى بتعيين محمد بن طغج الإخشيدى حاكمًا على مصر ، مكافأةً له على التصدى للفاطميين فى بلاد المغرب .

وقد استطاع محمد بن طغج أن يُوطد أركان الدولة ، وأن يعيد للبلاد الأمن ، كما اتسعت فى عهده الدولة ، فوصل نفوذ مصر إلى بلاد الشام ، والحجاز . وقد توفى الإخشيد وتولى من بعده ابنه أبو القاسم أنجور.

الدولة فى عهد أبى القاسم أنجور (٣٢٤ـ٣٤٩هـ / ٩٤٦ـ٩٦٠م) :

عندما تولَّى أنجور كان طفلاً صغيرًا ، فعيَّن وصيًا عليه كافور الإخشيدى ، وقد نقل العاصمة إلى مدينة العسكر ، بعد أن كانت مدينة القطائع فى عهد ابن طولون .

وفى عهد أبى القاسم أنجور ، وقع حريق كبير فى سوق البزازين ، بلغت خسائره حوالى عشرة آلاف درهم ، واحترقت فيه حوالى ألف وسبعمائة دار .

ولاية كافور الإخشيدى :

كان يُعرف باسم (أبو المسك كافور) ، وكان عبدًا من كبار قواد الدولة الإخشيدية . وقد كان كريمًا يُجزل العطاء . وفى عهده زار المتنبى الشاعر مصر ، ولم يتخير اللحظة المناسبة لطلب المنح من كافور ، فلم يعطه كافور أموالاً ، فأخذ فى سَبِّ كافور بقصيدة يقول فيها :

مَنْ علَّم الأسْودَ الخَصِيَّ مَكْرُمَةً ... آباؤُه السُّودُ أَمْ أجْدادُهُ الصيد

وَذَاكَ أنَّ الفُحولَ البِيضَ عَاجزةٌ ... عَن الجميل فَكَيْفَ الخصيّة السُّود

العَبْـدُ لَـيْسَ بِحُـرٍّ صـالِحٍ وَأخ ... لَـو أنَّـه فى ثِيـابِ الخَـزّ مَوْلُـود

لاَ تَـشتَرِ العَبـد إلا والعَـصَا مَعَـهُ ... إنَّ العبيـدَ منـاجِيسُ مَناكِيـدُ

ومن الطرائف التى تُروى عن كافور الإخشيدى ، أنه كان يسمع الموسيقى ، فهزَّ أكتافه بالرقص مثل الزنوج ، فرآه الناس ، وخاف أنْ ينقدوه فاتخذها عادة فكلما جلس يهز كتفيه ، حتى يعتقد الناس أنها طبع ، ولم يكُنْ يرقص .

وقد استطاع كافور الإخشيدى أن يحافظ على أملاك الدولة الإخشيدية ، وأن يمد سلطانها حتى حدود الدولة البيزنطية ، وقد توفى كافور عام ٣٥٧هـ / ٩٦٨م ، وتولى من بعده أبو الفوارس أحمد بن على .

أبو الفوارس أحمد بن على ٣٥٨هـ / ٩٦٩م :

تولَّى الحكم فترة قصيرة ، وكان عمره اثنتا عشرة سنة ، ولم تتجاوز فترة حكمه سنة واحدة ، وقد سقطت الدولة الإخشيدية فى عهده تحت سيطرة دولة الفاطميين ، وبدأ عهد جديد وهو عهد الدولة الفاطمية .

٣ ـ الدولة الفاطمية فى مصر[1]

(٣٥٨ ـ ٥٦٧هـ / ٩٦٩ ـ ١١٧١م)

يُنسَب الفاطميون إلى طائفة الشيعة الإسماعيلية ، وسُمُّوا بذلك نظرًا لادعائهم النسب للسيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ ، وقد استطاع هؤلاء الفاطميون تأسيس دولة لهم فى المغرب على يد أبى عبيد الله المهدى فى عام ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م ، وابتنى مدينة المهدية فى تونس لكى تكون عاصمة له .

وكان من أسباب توجُّه الفاطميين ، وتطلعهم شرقًا لمصر ، أن مصر قريبة من بلاد المغرب العربى ، المقر الأصلى للفاطميين ، وكذلك قرب مصر من ناحية الموقع

(١) انظر : المقريزى : اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا . وانظر للمقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

الجغرافى من مقر الخلافة العباسية السنية ، أعداء الفاطميين الشيعة . كما كان من الأسباب أيضًا رغبة الفاطميين فى التخلص من الثورات التى كانت تقوم ضدهم فى بلاد المغرب ، وأيضًا قرب مصر من بلاد الحجاز ، فقرب الحرمين الشريفين يجعل للدولة الفاطمية قيمة روحية .

لكل هذه الأسباب السابقة ، أرسل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى جيشًا إلى مصر بقيادة جوهر الصقلى فى عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م لفتح مصر ، حيث استطاع أنْ يسيطر عليها بكل سهولة نظرًا لضعف دولة الإخشيديين ، والتى كانت قد تفككت بعد وفاة كافور الإخشيدى ، وبسبب الصراع على الحكم نتيجة صغر سِنِّ أبى الفوارس آخر الحكام الإخشيديين.

وقد قام الفاطميون بتأسيس عاصمة جديدة لمصر ، وهى مدينة القاهرة ، وتأسيس الجامع الأزهر عام ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م . وقد استغرق بناؤه حوالى عامين ، وتم الانتهاء منه عام ٣٦١هـ / ٩٧٢م. وكان الغرض من إنشائه هو نشر مبادئ المذهب الشيعى فى مصر، وحتى لا يصطدم المصريون مع الفاطميين بسبب اختلاف المذهب . وقد سُمِّى الجامع الأزهر بهذا الاسم لأنه سُمِّى على اسم السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ . وقيل أيضًا : لأنه سيكون زاهرًا بالعلم . وأيضًا لأن نوافذه كانت زرقاء اللون .

وبعد أن انتهى جوهر الصقلى من فتح مصر ، أرسل للخليفة المعز لدين الله الفاطمى يخبره بأنه تم فتح مصر ، فحضر الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، ونزل فى قصره ، وبدأ حكمه لمصر والذى استمر ثلاث سنوات ، ودُفِن فى قصره بالقاهرة ، وتولّى من بعده العزيز بالله .

فترة حكم العزيز بالله الفاطمى (٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٩٦م) :

تولى الحكم بعد وفاة المعز لدين الله ، وقد بلغت مدة حكمه حوالى إحدى وعشرين عامًا ، وفى عهده تم تحويل الجامع الأزهر لجامعة علمية ، وأول مَنْ تولى التدريس فيه الوزير (يعقوب بن كلس) وكان يُدرِّس من كتاب الرسالة الوزيرية .

الحاكم بأمر الله الفاطمى (٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢٠م) :

كان الحاكم بأمر الله رجلاً غريب الأطوار ، فقد تميز بصفات متناقضة ، فقد كان شجاعًا وفى نفس الوقت جبانًا ، كان يحب العلماء وفى نفس الوقت يقتلهم . من أشهر أعماله إنشاء مسجد الحاكم ، وإنشاء دارالحكمة لنشر المذهب الشيعى . وكان من أغرب أعماله منع النساء من السير فى الطرقات ، ومنع الناس من أكل الملوخية ، ومنع الناس من العمل نهارًا .

كما أمر أن توقد الفوانيس بالنهار ، وتُطفأ بالليل ، وادعى النبوة ، وادعى معرفته بعلم الغيب ، وقد سخر المصريون منه عندما ادعى علم الغيب ، فألقوا إليه ورقة بها بيت شعر ، يقول :

بـا لجَـوْر وَالظُّلـم قَـدْ رَضـيناَ ... وَلَـيْسَ بـالكُفْر والحَمـاقَه

إنْ كنـتَ أُوتيـتَ عِلْـم الغيْـبِ ... بَـيِّنْ لنَـا صـاحبَ البطاقَـه

وقد كان أيضًا يدَّعى شرف النسب ، لأن نسبهم مطعونٌ فيه ، وكان يريد بذلك التعالى على الخلفاء العباسيين ، وقد سخر منه بعض الشعراء بقصيدة يقول مطلعها :

إنَّـا سـمِعْـنَا نبـأً منكـرًا ... يُـتْـلَى عـلى الـسَّامع فى الجَـامِع

إنْ كُنْـتَ فيمـا قلتَـهُ صَـادقًا ... فَـصِفْ لنَـا نَفـسَكَ كالطّـالع

أوْ كـان حقًّا كـلّ مـا تَـدعى ... فاعـدُدْ لنَـا بعـد الأب الـسّابع

أَوْ فَـدَعِ الأشـياءَ مَـسْـتُورةً ... وَادْخُـلْ بنَـا فى النـسَبِ الـسَّابع

وكان الحاكم بأمر الله الفاطمى يطلب من الناس تعظيمه ، فكان يأمرهم بالوقوف عند سماع اسمه فى المساجد ، كما ألزم المسيحيين بتعليق صلبان ضخمة فى رقابهم ، وفى عهده ظهر رجل ألَّف كتابًا ادعى فيه أن الحاكم نبى ، ووضع له مناظرات وهذا الرجل يُسمى أبو حمزة ، فلما طلبه الناس ليقتلوه فرّ إلى بلاد الشام، وأسس المذهب الدرزى.

وقد قُتِل الحاكم بأمر الله الفاطمى ، على يد أخته ست الملك ، حيث قامت بتدبير اغتياله عند ذهابه للمرصد الحاكمى ، وكان الحاكم بأمر الله مشغولاً بحب الفلك، فاتفقت مع مجموعة من العبيد على قتله عند صعوده جبل المقطم ، فقتلوه عام ٤١١هـ/ ١٠٢٠م . وتولى بعده ابنه الظاهر بن الحاكم بأمر الله ، ومكث فى الحكم حوالى خمسة عشر سنة ، وثمانية شهور .

ثم تولَّى من بعده ، المستنصر بالله معد بن الظاهر ، وحكم لمدة ستين عامًا وحدثت فى عهده الشدة المستنصرية ، وهى عبارة عن موجة غلاء ، حدثت نتيجة نقصان النيل ، لدرجة أن رغيف الخبز وصل ثمنه لخمسين دينارًا ، وأكل الناس جثث الكلاب ، وجثث الموتى ، ولم ينقذ مصر من هذه الأزمة سوى شحنات القمح الآتية من بلاد الشام ، وقدم بها بدر الدين الجمالى ، الذى تولى الوزارة وبنى باب زويلة المشهور حتى الآن .

ثم تولى من بعده ابنه المستعلى بالله ، أبو القاسم . وتولى الوزارة له بدر الدين الجمالى . وفى عهده بنى الجامع الجيوشى بالمقطم ، وجامع الجيزة . وفى عهد المستعلى بالله بدأت الحملات الصليبية، ودخل الصليبيون بيت المقدس عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م. وقد بلغت مدة حكمه سبع سنوات . وتوفى عام ٤٩٥هـ/ ١١٠١م .

وتولَّى من بعده الآمر بأحكام الله ، وفى عهده بنى جامع الأقمر ، وقُتل الآمر بأحكام الله بالجيزة عام ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م . وتولى من بعده الحافظ لدين الله . وحكم لمدة تسعة عشر عامًا . وتوفى عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م . ثم تولى الظافر بأعداء الله . وفى عهده بُنِى جامع الفكهانى . كما تولى من بعده الفائز عيسى بن الظافر وكان وزيره الصالح طلائع بن رزيك ، ثم تولى من بعده آخر خلفاء الدولة الفاطمية الخليفة العاضد ، وهو آخر الخلفاء الفاطميين فى مصر . توفى عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م .

٤ ـ الدولة الأيوبية [١]

(٥٦٧ ـ ٦٤٨هـ/١١٧١ ـ ١٢٥٠م)

فى أواخر عهد الدولة الفاطمية ، شهدتْ صراعًا بين الوزراء ، والذين زاد نفوذهم نتيجة لضعف الخلفاء ، وكان من أشهر الوزراء الذين قام بينهم الصراع شاور وضرغام . وقد استنجد شاور بالصليبيين لمساعدته فى صراعه ضد ضرغام ، بينما استنجد ضرغام بنور الدين محمود ، والذى كان يحكم إمارة الموصل وورث أملاك أبيه عماد الدين زنكى .

وكانت الرغبة فى فتح مصر ، تراود نور الدين محمود لعدة أسباب ، وهى قوة مصر العددية والاقتصادية وحاجته لهذه القوة ، لمؤازرته فى حربه ضد الصليبيين ، ومنها محاولة توحيد العالم الإسلامى للوقوف ضد الصليبيين ، وأيضًا مساندة الوزير ضرغام .

لكل هذه الأسباب أرسل نجم الدين محمود جيشًا بقيادة أسد الدين شيركوه لفتح مصر ، واصطحب معه أسد الدين ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى . وبعد وفاة أسد الدين شيركوه تولَّى صلاح الدين الأيوبى الوزارة للخليفة العاضد عام ٥٦٤هـ/ ١٢٦٥م . وقد بدأ عهده بالوزارة بتقوية نفوذه . فأبطل المذهب الشيعى بمصر ، وأوقف صلاة الجمعة بالجامع الأزهر نتيجة فتوى القاضى صدر الدين بن درباس .

وبعد وفاة الخليفة العاضد ، أعلن صلاح الدين الأيوبى قيام الدولة الأيوبية وفى عهده اتسع نفوذ الدولة واستطاع ضم الشام ، واليمن ، وبرقة لحكم مصر ، كما سيطر على بلاد النوبة .

ومن أهم أعماله العمرانية فى مصر بناء قلعة الجبل ، وإنشاء سلسلة من المدارس مثل المدرسة القمحية ، وكان الغرض من إنشاء المدارس هو محاربة الأزهر الشريف،

(١) انظر أبو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين ، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

ومحاولة إيجاد بدائل عنه ، ورغم ذلك ظل الأزهر الشريف يحتل مكانة علمية فى قلوب المصريين ، وشهد إقبالاً شديدًا من الطلاب على الدراسة فيه ، كما بُنى فى عهده قلعة الجبل .

أما عن أهم أعمال صلاح الدين الحربية ، وهى مهنته الرئيسية فهى انتصاره على الصليبيين فى موقعة حطين ، وفتحه بيت المقدس والذى كان قد سقط فى يد الصليبيين فى عهد الدولة الفاطمية ، فقد تمكَّن من فتحها فى عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م . وقد توفى صلاح الدين الأيوبى فى عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م .

وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبى تولَّى من بعده ابنه العزيز عماد الدين ، وبلغت مدة حكمه حوالى خمس سنوات ، وتوفى عام ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م . وتولى من بعده الملك الأفضل نور الدين . وقد ثار ضده عمه العادل أبو بكر الذى تولى الحكم ، وفى عهده نقل الوزارة إلى قلعة الجبل ، وفى عهده اشتدت موجة الغلاء فى مصر ، كما تعرضت مصر لغزو من الصليبيين .

وقد تولَّى من بعده ابنه الملك الكامل ، وبدأ بمحاربة الصليبيين الذين نزلوا دمياط عام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م . وقد أقام جسرًا على النيل شمال دمياط . واستغل فترة الفيضان وأغرق الصليبيين ، وطلبوا الخروج من مصر فتم جلاؤهم من مدينة دمياط ٦١٨هـ/ ١٢٢١م .

وبعد وفاة الملك الكامل ، تولَّى بدلاً منه ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م . وأهم أعماله الحربية هى استرداد بيت المقدس من يد الصليبيين ، والانتصار على الحملة الصليبية السابعة ، والتى قادها ملك فرنسا لويس التاسع ، وقد استطاع جيش الأيوبيين أن يوقع الهزيمة بلويس التاسع ، والذى تم أسره فى دار ابن لقمان ، ولم يُفرج عنه إلا بعد دفع فدية مقدارها ثمانمائة ألف دينار .

ومن أهم أعمال الصالح نجم الدين أيوب : بناء قلعة الروضة ، وإقامته فيها ، ويُعتبر أول من استكثر من شراء المماليك ، وأسكنهم فى قلعة الروضة ، ولذلك سُموا بالمماليك البحرية ، كما بنى قنطرة بالسد ، وبنى مدرسة بين القصرين .

وتولَّى من بعده ابنه تـوران شـاه ، ولم يمكـث فى الحكـم سـوى شـهرين حيـث تعرَّض لمؤامرة من المماليك ، والذين حرضتهم شجرة الـدر عـلى قتلـه ، لأنـه طالـب بأموال أبيه ، فقُتِل بعد أنْ قفز فى النيل ، وأخرجوه ، وضربوه بالسيوف حتى توفى .

ثم تولَّتْ شجرة الدر . وعُيِّن الأمير عز الدين أيبك التركمانى أميرًا على الجـيش وقد تزوجته فيما بعد ، ثم تنازلتْ له عن الحكم وبدأت دولة المماليك البحـرية ، وقـد مكثتْ شجرة الدر فى الحكم لمدة ثلاثة شـهور . ويُعتـبر عهـدها آخـر عهـد للدولـة الأيوبية ، والتى استمرت فى حكم مصر اثنين وثمانين عامًا .

وقد كانت الدولة الأيوبية فى مصر من أفضل الدول التـى قامـتْ ، فقـد أحبهـا المصريون ، نظرًا لصلاح حكامها ، وجهادهم ضد الصليبيين ، وحـبهم وتـشجيعهم للعلماء . وفى ذلك يقول الشاعر:

كَـانُوا لُيوثًـا لَايُـرامُ حمـا هُمُـو ... فى كُـلِّ ملحمـةٍ وكُـل هيَـاج

فَـانظُر إلى آثـارهم تَلقـى لهـم ... علمـًا بكُـلِّ ثَنِيَّـة وفِجَـاج

فَعلـيهم مَـا عـشْتَ لا أدَع البُكَـا ... مَـعَ كُـلِّ ذِى نظـرٍ وطَـرف نبـاح

٥ ـ الدولة المملوكية فى مصر [1]
(٦٤٨ـ٩٢٣هـ/١٢٥٠ـ١٥١٧م)

المماليك طائفة من الأرقاء البيض ، أول مَن استكثر منهم الملـك الـصالح نجـم الدين أيوب ، والذى أسكنهم فى قلعة الروضة بالمنيل ، ولذلك سُموا بدولة المماليـك البحرية . وينقسم العصر المملوكى فى مصر إلى عصرين ، هما: دولة المماليك البحريـة وحكمتْ فى المدة بين (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) إلى عـام (٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م) . ودولـة المماليك الجراكسة (البُرْجيـة) وحكمـت منـذ عـام (٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م) حتـى عـام

(١) انظر المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك . وانظر إبراهيم طرخان : دولة المماليك الجراكسة . وانظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى محاسن مصر والقاهرة .

(٩٣٩هـ/ ١٥١٧م) . وبلغت مدة حكم دولة الجراكسة حوالى مائة وأحد وعشرين عامًا .

أولاً: دولة المماليك البحرية (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م) :

حكمتْ هذه الدولة مصر حوالى مائة وثلاثين سنة ، وسبعة أشهر ، وأول مَنْ تولَّى الحكم فيها عز الدين أيبك التركمانى ، وقد قتل بتدبير من زوجته شجرة الدر ، بسبب غيرتها من قيامه بالزواج عليها . وقد بلغتْ مدة حكمه حوالى سنتين ، وإحدى عشر شهرًا . وكان قد تولَّى الحكم فى عام (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) ، وتولَّى من بعده ابنه المنصور لمدة عام واحد .

ثم تولَّى الحكم السلطان سيف الدين قطز ، والذى استطاع الانتصار على المغول فى موقعة عين جالوت عام (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) . وقد أنقذ مصر والعالم من الخطر المغولى ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك ، وبذلك يكون قد أنهى أسطورة المغول . وقد قُتِل قطز على يد الأمراء المماليك عام (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) ، وتولى من بعده الظاهر بيبرس .

السلطان بيبرس هو الظاهر بيبرس البندقدارى العلائى ، تولى السلطنة عام (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) . وله أعمال عظيمة سواء فى الناحية العسكرية ، أو الناحية العمرانية ، أو الناحية السياسية ، فمن أهم أعماله العسكرية القضاء على الخطر المغولى عندما تم تحالف بين مغول فارس ، ومغول القبيلة الذهبية ، ولكن بيبرس أفشل هذا المشروع بقيامه بالزواج من ابنة رئيس قبيلة المغول الذهبية (بركة خان) .

وبعد وفاة هولاكو حاول ابنه (أبغا) التحالف مع الصليبيين ضد المسلمين ، ولكن بيبرس استطاع هزيمة جيش المغول عام ١٢٧٧م . ومن أعمال بيبرس الحربية قضاؤه على بقايا الوجود الصليبى فى بلاد الشام فاستولى فى عام ٦٤٦هـ -١٢٦٥م على قيسارية ، وحيفا ، وأرسوف . كما استولى على أنطاكية أقوى الإمارات الصليبية فى عام (٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م) وهاجم جزيرة قبرص ، وهى محطة تموين للصليبيين .

أما عن أعماله السياسية ، فقد أعاد الخلافة العباسية إلى القاهرة ، حيث أحضر الخليفة العباسى للقاهرة ، وكان اسمه المستنصر ، وأثبت نسبه عند قضاة الشرع ، وأعطى له سلطة تعيين السلاطين ، وآخر خليفة عباسى فى القاهرة هو المتوكل . والذى توفى عام ٩٥٠هـ . وقد سُمى حى الخليفة بمدينة القاهرة بهذا الاسم ، لأنه كان مقرًا للخليفة العباسى .

ومن أعمال بيبرس السياسية إعادته الخطبة للجامع الأزهر بعد أن توقفت فيه لمدة مائة عام ، وأقيمت فيه صلاة الجمعة ، كما استحدث بيبرس منصبًا جديدًا ، وهو منصب ناظر الأزهر ، لمراعاة شئون الجامع .

ومن أعماله العمرانية بناء جامعه المشهور ، باسم جامع الظاهر ، وبناؤه خانقاه. وقناطر أبو منجى فى القليوبية ، كما عمر العديد من المدارس ، وخصَّص لها أوقافًا للإنفاق عليها .

وقد تُوفِّى السلطان بيبرس عام (٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) فى مدينة دمشق ، وقد تولَّى من بعده ابنه بركة ، ومكث فى الحكم مدة سنتين وثلاثة أشهر ، وبعده تولى سلامش لمدة مائة يوم ، ثم عُزل .

وبعد عائلة بيبرس تولتْ دولة المماليك البحرية (عائلة قلاوون) ، وأولهم هو الملك المنصور أبو المعالى قلاوون ، ومن أهم أعماله العمرانية بناء مارستان قلاوون ، وقبة قلاوون .

أما أعماله الحربية فهى : مواصلة الغزو ضد الوجود الصليبى فى بلاد الشام ، فتمكن من حصار طرابلس عام (٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م) ، واستولى عليها ، ولم يَبْقَ فى أيدى الصليبيين سوى عكا ، وصيدا ، وصور ، وحيفا ، وقد توفى قلاوون عام (٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م) بعد أن استمرت فترة حكمه حوالى إحدى عشر سنة .

وقد تولَّى بعده خليل بن قلاوون ، وقد استطاع فى أولى سنوات حكمه عام (٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م) أن يحاصر عكا ويستولى عليها ، وبذلك تكون قد سقطت عكا

وهى آخر قلاع الصليبيين فى بلاد الشام . كما استولى على صيدا ، وصور وحيفا . وبذلك انتهى الوجود الصليبى من بلاد المسلمين ، بعد استمراره لمدة قرنين من الزمان ، وقد توفى الأشرف خليل بن قلاوون فى عام (٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م) . بعد قتله على يد الأمير بيدار .

ثم تولَّى من بعده الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وكان صغيرًا وتولَّى الوصاية عليه الأمير زين الدين كتبغا ، ثم خلعه وتولى الحكم ، وفى عهده انتشر الغلاء فى مصر وانتشرت الأوبئة قبل كتبغا ، وعاد الناصر بن قلاوون للحكم مرة ثانية .

ونظرًا لطول فترة حكم دولة المماليك البحرية ، وأيضًا الصراعات والمؤامرات التى كانت فى هذه الدولة ، نجد أن عدد السلاطين الذين تولوا الحكم قد ازداد ، ولذلك سنقتصر فى الحديث عن أهم السلاطين الذين تركوا أعمالاً عمرانية هامة ، أو الذين حدثت فى عهدهم حوادثُ مميزة . ومنهم:

الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقد تولَّى الحكم للمرة الثالثة ، وأهم أعماله العمرانية بناء جامع الناصر بمصر القديمة ، وعمارة جامع القلعة ، وبناء خانقاه بسرياقوس ، وحفر الخليج الناصرى المتصل بسرياقوس ، كما أصلح قناطر الجيزة .

ومن أشهر ملوك دولة المماليك البحرية السلطان حسن ، ومن أشهر أعماله العمرانية بناء مدرسته فى حى القلعة بميدان الرميلة ، وهى المعروفة الآن بجامع السلطان حسن . وقد بلغت مدة بناء هذه المدرسة حوالى ثلاث سنوات ، وكان يخصص لها يوميًا مصاريف تبلغ ألف مثقال ذهب . وفى عهد السلطان حسن ، تم بناء جامع شيخون وخانقاه الأمير صرغتمش ، وقد بلغت مدة حكم السلطان حسن ست سنوات وسبعة أشهر ، وكان قد تولى الحكم للمرة الثانية فى عام (٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م) .

ومن أشهر الحكام أيضًا ، والذين تولوا الحكم . الملك الأشرف بن شعبان ، وقد بلغت مدة حكمه أربع عشرة سنة ، وفى عهده استحدثت العمامة الخضراء لكى

يلبسها الأشراف عام (٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م) ، وفى عهده خرج تيمورلنك بثورة ضد السكان .

ثم تولَّى من بعد الأشرف بن شعبان ابنه المنصور على ، ومن بعده الملك المنصور حاجى بن الأشرف ، والذى عزله برقوق ، مُنْهيًا بذلك حكم دولة المماليك البحرية فى عام (٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م) .

ثانياً: دولة المماليك البُرْجية (الجراكسة) عام (٧٨٤-٩٠٩هـ) :

هم طائفة من الأرقاء من بلاد القوقاز ، وروسيا ، والذى استكثر منهم فى مصر هو السلطان قلاوون ، حيث بلغ عددهم فى عهده ، حوالى ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك وأسكنهم فى أبراج القلعة ، ولذلك عُرِفوا باسم البُرْجية . وقد حكم هذه الدولة العديد من الملوك والسلاطين ، من أشهرهم :

السلطان برقوق :

اسمه عثمان بن آنص . تولى الحكم(٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م) ، وفى عهده زاد عنصر الجراكسة فى مصر ، ومن أشهر إنجازاته العمرانية بناء مقبرته بالصحراء ، وهى الموجودة الآن بصحراء المماليك ، ومدرسته التى يقول الشاعر فيها :

قَدْ أنشَأ الظَّاهر السُّلطَانُ مدرسةً ... فَاقَتْ عَلَى إرمَ سُرْعة العَمَلِ

يَكْفى الخليل بأنْ جَاءَتْ لِخدمتِهِ ... صُم الجبالِ بها تمشى عَلى عجل

وقد تُوفِّى عام (٨٠١هـ/ ١٣٩٨م) وبلغت مدة حكمه ست عشرة سنة ، وبعد وفاته بَلغت ثروته حوالى ٢مليون دينار ، وبلغت قيمة الأقمشة والملابس والأثاث مليون دينار ، عدا الخيول التى بلغ عددها حوالى ستة آلاف ، والجمال خمسة آلاف .

وقد تولَّى من بعده ابنه فرج بن برقوق ، والذى مات مقتولاً بدمشق ، وتُركت جثته مُلْقاةً على تل من القمامة فترة ، حتى كفَّنه أحدُ الناس ودفنه ، ومن بعده تولى الملك العادل أبو الفضل العباسى لمدة ستة شهور .

ومن أشهر ملوك دولة الجراكسة فى مصر المؤيد شيخ المحمودى ، وفى عهده حُبِس الخليفة فى القلعة ، ومن أشهر أعماله العمرانية بناء مدرسته ، والتى أخذ بابها من مدرسة السلطان حسن ، وتولَّى من بعده المظفر أبو السعادات بن المؤيد

ومن أشهر الملوك أيضًا الملك الأشرف برسباى ، والذى تولى عام ٨٢٥هـ ، ومن أهم أعماله فتح جزيرة قبرص فى عام (٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م) . وفرض عليهم الجزية ، كما قام بإنشاء مدرسة ، وبنى مقبرة خارج باب النصر ، وتوفى السلطان برسباى فى عام (٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م) بعد أن مكث ستة عشر عامًا ، وثمانية أشهر ، وخمسة أيام .

ومن السلاطين الذين أسهموا فى ازدهار دولة المماليك الجراكسة السلطان قايتباى المحمودى ، تولَّى الحكم فى (٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م) ، وهو من أفضل سلاطين هذه الدولة ، ومن أشهر أعماله العمرانية عمارة المسجد النبوى الشريف ، وعمارة المسجد الحرام ، وخصَّص أوقافًا ، وهى عبارة عن قرى مصرية تحمل الغلال إلى جيران رسول الله ﷺ ، كما بنى مقبرته بالصحراء ، وقد كان هذا الملك محبوبًا من الشعب المصرى.

ومن أشهر السلاطين قنصوة الغورى ، وهو آخر سلاطين دولة المماليك البُرْجية فى مصر . وقد تولى حكم مصر فى عام (٩٠٧هـ/ ١٥٠٧م) ، وقد كان شديد الدهاء ، وله العديد من المنشآت العمرانية منها مدرسته ، ومدفنه . كما بنى المنارة ذات الرأس المزدوجة بالجامع الأزهر ، وعمارة جامع المقياس بالروضة ، وعمارة سبيل المؤمنين بالقرافة ، كما قام بإنشاء سواقى مصر القديمة ، ومجارٍ لنقل المياه ، وبناء قبة برقوق بالقرب من المطرية .

وفى عهد قنصوة الغورى ، تم كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، على يد البرتغاليين ، مما أدى لتحول طرق التجارة عن مصر إلى رأس الرجاء الصالح . فنتج عنه تدهور الحياة الاقتصادية فى مصر . وقد حاول قنصوة الغورى محاربة البرتغاليين،

فاشترك مع أهالى البندقية بتجهيز أسطول لمحاربة البرتغاليين ، ولكنه هُزِم فى موقعة ديو البحرية .

وقد دخل الغورى فى صراع مع العثمانيين ، والذين بدأوا فى التوجه شرقًا تجاه العالم الإسلامى بسبب رغبتهم فى السيطرة على العالم الإسلامى ، تحقيقًا للزعامة الروحية التى كانوا يميلون إليها . وأيضًا رغبتهم فى حصار الدولة الصفوية فى إيران، التى كانت تمثل عدوًا رئيسيًا للدولة العثمانية ، وكان السبب هو الاختلاف المذهبى ، فدولة الصفويين كانت شيعية المذهب ، والدولة العثمانية كانت سنية المذهب ، كما أن الدولة العثمانية اتهمت السلطان قنصوة الغورى بإيواء الأمراء العثمانيين الفارين إلى مصر.

ولذلك أرسل السلطان العثمانى جيشًا تحت قيادته لمحاربة قنصوة الغورى ، والتقى الجيشان فى معركة مرج دابق فى عام (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) . وقُتِل السلطان الغورى تحت أرجل الخيل ، بعد إصابته بالشلل . ثم واصل العثمانيون زحفهم إلى مصر ، وتقابلوا مع طومان باى فى موقعة الريدانية عام (٩٢٣هـ/ ١٥١٧م) . وكانت الهزيمة من نصيب جيش المماليك ، ثم أُعدِم طومان باى شنقًا على باب زويلة ، وبذلك انتهى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ودخلت مصر تحت حكم الدولة العثمانية .

ومن الأسباب التى أدَّت لهزيمة المماليك فى معاركهم ضد الدولة العثمانية هى : استخدام العثمانيين لسلاح البنادق ، والتى لم تكُنْ معروفة للمماليك . والسبب الثانى هو اعتماد العثمانيين على سلاح الغدر والخيانة باتفاقهم مع خاير بك ، أحد الأمراء المماليك على توليته حكم مصر ، نيابة عن العثمانيين لو تخلى عن مناصرة قنصوة الغورى .

ولذلك أطلق الشعب على خايربك ، اسم خائن بك . ومن ألوان الخيانة أيضًا التى اعتمد عليها العثمانيون الاتفاق مع قبائل الأعراب ، والتى كانت تعيش فى مصر على تسليم طومان باى للعثمانيين ، وتم شنقه على باب زويلة.

٦ ـ العصر العثمانى فى مصر [١]
(١٥١٧م ـ ١٧٩٨م)

يُعتبر العصر العثمانى فى مصر ، والذى امتدَّ منذ عام ١٥١٧م إلى عام ١٩١٤م من أسوأ العصور التى مرَّت بها مصر ، حيث شهدتْ البلاد فى عهدهم ركودًا ، طال جميع القطاعات ، وأصبحت مصر فى عزلة عن العالم وما يجرى فيه . ويكفى أن مصر فى عهد العثمانيين فقدت استقلالها وأصبحت مجرد إيالة عثمانية ، تدفع الجزية لهم دون أىّ مقابل يعود على مصر .

ويكفى تأخر عصر النهضة فى مصر بسببهم فترة كبيرة ، كما أدى وجودهم فى مصر لسيادة أنماط سيئة ، سواء فى طريقة الحكم أو العلاقات الاجتماعية أو الاقتصادية . وسنعرض أهم ملامح العصر العثمانى فى مصر :

أولاً : الأحوال السياسية :

استخدم العثمانيون فى حكم مصر نظامًا مهلهلاً ، يحمل فى طياته عوامل انحداره وتخلفه ، وكانت فلسفته مبنية ، وتقوم على اعتبار مصر مجرد ضيعة يمتلكها السلطان وتُدرله دخلاً ، ويا ليته اهتم بتحسين أحوالها ، بل استنزف قدرات مصر ، سواء الاقتصادية أو البشرية . وكان من أبرز ملامح هذا النظام هو توزيع السلطة فى مصر بين ثلاثة عناصر ، ضمانًا لعدم انفراد إحداها بالسلطة ، مما أدى للصراع بينها . وهذه العناصر الثلاث هى :

(أ) الوالى :

كان يُعتبر ممثلاً للسلطان العثمانى فى مصر ، وانحصرت مسئوليته فى جمع الجزية والضرائب وإرسالها إلى الأستانة مقر الحكومة العثمانية . وكان معيار اختيار الولاة الوحيد هو مدى قدرتهم على تقديم الرشاوى للصدر الأعظم رئيس الوزراء العثمانى

---

(١) انظر : إسحاق المنوفى : مرجع سبق ذكره . وعبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ومظاهر التقديس فى ذهاب دولة الفرنسيس .

ومدى ولائهم للسلطان ، بغض النظر عن كفاءتهم الإدارية أو غيرها ، فهى ليست فى حساب العثمانيين .

وكانت مدة الوالى قصيرة للغاية لا تتجاوز فى أى حال من الأحوال مدة الثلاث سنوات ، والسبب فى ذلك حتى لا ينفرد بشئون الولاية ، وحتى تكون هناك فرصة أخرى لتعيين ولاة ، مما يتيح مزيدًا من الرشاوى للصدر الأعظم . وقد دخل الولاة فى صراع مع الزمن أثناء مدة ولايتهم للحصول على أكبر قدر من الأموال تعويضًا لما دفعوه رشاوى ، ولتكوين ثروة ، تاركين أمر الولاية ، تصارعها الأنواء ، ويتنازعها المغامرون .

(ب) الديوان :

كان الديوان يتكون من كبار قواد الجيش العثمانى فى مصر ، وكانوا خمس فرق أساسية وهم : الانكشارية ، الألبان ، الباش بوزق ، الجراكسة ، الدلاة . وكان للديوان وظيفته ، وهى عبارة عن معاونة الوالى فى إدارة شئون الولاية ، هذا فى ظاهر الأمر . أما فى باطنه فهو مراقبة الوالى ، وقد كان له أيضًا سلطة الاعتراض على قرارات الوالى .

(جـ) المماليك :

هم بقايا العناصر الجركسية ، وقد أمَّنهم السلطان سليم الأول على أموالهم ، وأرواحهم واستعان بهم نتيجة لخبرتهم فى حكم مصر ، وفى إدارة شئون الحكم المحلى، فتولوا مناصب الكشوفية وهى تحصيل الضرائب ، ومناصب الصنجقية وهم حكام المماليك ، كما تولوْا منصب مشيخة البلد (حاكم مدينة القاهرة) .

وقد استغلوا ضعف الحكم العثمانى فى مصر ، وقاموا بمحاولة الاستقلال عن الحكم العثمانى ، عندما قام أحد زعمائهم وهو على بك الكبير والذى كان شيخًا للبلد بتكوين جيش كبير استطاع طرد القوات العثمانية من مصر . وضمَّ إليه بلاد الشام ، وتحالف مع الشيخ ضاهر العمر بفلسطين ، وأطلق على نفسه (خاقان البحرين) .

كما استطاع تحقيق عدة انتصارات على جيش الدولة العثمانية ، ولكن العثمانيين كعادتهم اضطروا لاستخدام سلاح الحيلة للتخلص من على بك الكبير ، وذلك عن طريق الاتفاق مع أحد قواده وهو محمد بك أبو الدهب ، والذى قام باغتيال على بك الكبير .

وبذلك تخلصتْ الدولة العثمانية من حركته ، ويعتبر المؤرخون أن حركة على بك الكبير هى البروفة الأولى لمحمد على ، والذى استطاع فيما بعد الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية .

ثانيًا : الحياة الاقتصادية:

كان الاقتصاد المصرى متدهورًا منذ أواخر عصر دولة المماليك ، ولكن زاد تدهورًا فى العهد العثمانى ، نتيجة لقصر مدة الولاة ، وإهمال شئون الولاية ، ومن أهم ملامح النظام الاقتصادى فى العصر العثمانى هى :

(أ) **الزراعة** :

شهدتْ الزراعة تدهورًا بسبب إهمال العثمانيين لشأنها ، ومن مظاهر التدهور اعتبار الأرض كلها ملكًا للسلطان ، والمزارعون يزرعونها طبقًا لحق الانتفاع ، وأيضًا قيام العثمانيين بتطبيق نظام الالتزام ، وهو نظام كان يعتمد على قيام شخص بسداد الضرائب مقدَّمًا للدولة ، مقابل إعطائه أرضًا يزرعها الفلاحون بالسخرة ، وكانت تسمى أرض الوسية .

وبعد أنْ أصبح نظام الالتزام مصدرًا من مصادر الثراء ، أصبح شديد الإقبال عليه ، ولذلك كانت تعقد حلقات مزادات لتوزيع الالتزامات لمن يتعهد بالدفع أكثر . وكان الالتزام غالبًا من نصيب المماليك ، ومشايخ العربان . وقد أعطى الملتزمون لأنفسهم حقوقًا إدارية وقضائية فى نطاق مناطق التزامهم ، وأصبحوا دولة داخل دولة .

ومن مظاهر التدهور الذى أصاب القطاع الزراعى فى عهد العثمانيين إهمال حفر الترع ، والاعتماد على المحاصيل الغذائية فقط ، وإهمال المحاصيل النقدية ، وقد ترتب على هذا النظام هجرة كثير من الفلاحين أراضيهم هربًا من مطالبات الملتزمين، كما تراخى الفلاحون فى عملية الزراعة .

(ب) الصناعة :

لم تكن الصناعة أحسن حالاً من الزراعة ، والتى ترتبط بها ارتباطًا شديدًا ، فقد تدهورت الصناعة نتيجة تدهور الزراعة ، كما سادت الحرف البدوية البسيطة، وقام رؤساء طوائف الحرف بالعمل كجامعى ضرائب للدولة من أبناء حرفهم دون أنْ يقوموا بتطويرها .

(جـ) التجارة :

تدهورت التجارة بسبب انعدام الأمن ، حيث كانت تقوم القوات العثمانية بنهب القوافل ، بالإضافة لقيام العربان بمهاجمة القوافل أيضًا ، وكأنما تحالف العثمانيون مع الأعراب على دمار الاقتصاد . وكان من مظاهر تدهور التجارة تدهور قيمة العملة العثمانية ، واعتماد الناس على ريال مارى تريزا باعتباره عملة محترمة . كما اختلفت المكاييل والموازين من جهة لأخرى ، وأيضًا من مظاهر تدهور التجارة عدم انتظام الأسواق ، والتى كانت تتعرض للنهب المنظم من العناصر العثمانية .

ثالثًا : الحياة الاجتماعية :

كان المجتمع المصرى فى عهد العثمانيين ، يعانى من عدم العدالة الاجتماعية والتى كانت نتيجة تقسيم المجتمع إلى طبقتين متفاوتتين من حيث الحظوظ ، والأرزاق ، فقد انقسم المجتمع المصرى إلى:

(أ) طبقة الحكام :

تتكون هذه الطبقة من الأتراك ، والمماليك ، وكانت تمتلك كل الامتيازات ، فهم الملتزمون ، وهم القواد العسكريون ، وهم أمراء الأقاليم ، وكانوا يمتلكون معظم

الأراضى الزراعية ، ويمتلكون القصور الفاخرة ، وكانوا مُعْفَوْنَ من الضرائب ، وغيرها .

(ب) طبقة عامة الشعب :

وهى تتكون من العمال والفلاحين ، وليست لهم أية امتيازات ، فكانوا يدفعون الضرائب والتى تفنن الأتراك والمماليك فى فرضها ، فهناك ضريبة الميرى ، والبرانى ، والجوانى ، إلى آخر هذه الحيل الشيطانية لجباية الأموال ، كما كانت هذه الطبقة تعيش فيما يشبه الأكواخ .

وتتوسط هاتين الطبقتين طبقة علماء الدين من رجال الأزهر الشريف ، والذين كانوا بمثابة مدافعين عن الطبقة الفقيرة أمام الطبقة الغنية ، ولذلك كان الشعب يحترمهم ويُجلهم ، وقد قامت هذه الطبقة بجهود كبيرة فى سبيل تنوير الشعب المصرى ، وكان الأتراك والمماليك يخشوْنَ سطوة هؤلاء العلماء ، وكانوا يستجيبون لهم ، مما أعلا من شأن هذه الطبقة فى نظر المصريين .

٢ ـ الأحوال الصحية :

نتيجة لتدهور الأحوال السياسية والأحوال الاقتصادية ، كان من الطبيعى تدهور أحوال الصحة العامة فى العهد العثمانى ، فقد تعرضتْ مصر لأوبئة مثل وباء الطاعون ، والذى كاد يفتك بالسكان نتيجة انتشار البرك المتخلفة من مياه النيل فى فترة الفيضان ، وعدم قيام السكان بردمها ، بالإضافة لطبيعة مناخ مصر الحار ، الرطب .

وجد الطاعون الفرصة مناسبة للنمو وللفتك بالسكان ، كما كانت الخدمة الصحية ، والمتمثلة فى المستشفيات والمحاجر الصحية تكاد تكون منعدمة ، ولذلك تناقص عدد الشعب المصرى ، ووصل حتى مجىء الحملة الفرنسية على مصر إلى حوالى مليونين ونصف المليون نسمة .

٣ ـ التعـــليم :

ما يقال عن الصحة ، ويُقال عن الاقتصاد ، يقال أيضًا عن التعليم ، فقد تدهور التعليم ، وظل قاصرًا على بعض الكتاتيب ، وعلى الجامع الأزهر الشريف والذى ظل محافظًا على اللغة العربية من الضياع ، وظل بمثابة الشمعة التى تضىء ظلمات الليـل ، وكان من نتيجة تدهور التعليم انتشار الدجل والشعوذة ، وسيادة الأفكار المتخلفـة ، بالإضافة لانتشار عملية استخدام كتابة الأحجبة والتمائم لتفادى الأمراض .

ولعل القارئ يتساءل : هل الدولة العثمانيـة ، لم تحـاول أبـدًا الإصـلاح ؟ وهـل كانت متخلفة فى عقر دارها ؟ والإجابة على السؤال الأول : نعم لم تحاول الإصلاح ، لأنها كانت تنظر إلى الولايات على أنها خزانة نقـود فقـط ، بالإضـافة لعـدم تـأهلهم حضاريًا وثقافيًا للرقى بأحوال الولايات ، نظرًا لطبيعة نشأتهم الرعوية .

أما الإجابة عن السؤال الثانى فقد اعتمدت الدولة العثمانية على أبناء الولايـات فى بناء معالم النهضة فى استانبول .

فعندما دخل سليم الأول مصر ، أخذ معـه كـل الـصناع المهـرة لكـى يبنـوا لـه عاصمته ، وعنـدما زار مصر وقـف مبهـورًا أمـام العمـارة الإسـلامية المـصرية ، ويقال : إنه عندما شاهد مسجد السلطان حسن قال : هذا حصار عظيم . وعنـدما شاهد مدرسة السلطـان المؤيَّد قال : هذه عمـارة المـلوك ، وعندما شـاهـد مدرسـة الغورى ، قال : هذه عمارة تاجر .

* * *